

المبحث الثالث في معنى كلمة لا إله إلا الله

لقد عني أئمة الدعوة -رحمهم الله- ببيان معنى كلمة التوحيد، فأفردها الشيخ محمد بن عبد الوهاب برسالة في جواب سؤال، وتكلم عليها في كشف الشبهات وغيره، وتعرض لها شراح كتاب التوحيد وغيرهم، وإليك ما ذكره الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد صفحة: 53 حيث يقول: ومعنى لا إله إلا الله: أي لا معبود بحق إلا إله واحد، وهو الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } . مع قوله تعالى: { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّاغُوتَ } . فصح أن معنى الإله هو المعبود ولهذا { لما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لكفار قريش: "قولوا: لا إله إلا الله" . قالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب } وقال قوم هود { أَجْتِنَّا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدْرَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ } . وهو إما دعاهم إلى: " لا إله إلا الله " . فهذا هو معنى: " لا إله إلا الله " وهو عبادة الله وترك عبادة ما سواه، وهو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فتضمنت هذه الكلمة العظيمة: أن ما سوى الله ليس بإله، وأن إلهية ما سواه من أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره، فتضمنت نفي الإلهية عما سواه، وإثباتها له وحده لا شريك له، وذلك يستلزم الأمر باتخاذ إلهًا وحده، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهًا، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلاً يستفتي أو يستشهد من ليس أهلاً لذلك، ويدع من هو أله، فنقول: هذا ليس بمفت ولا شاهد، المفتي فلان والشاهد فلان، فإن هذا أمر منه ونهي. وقد دخل في الإلهية جميع أنواع العبادة الصادرة عن آله القلب لله بالحب والخضوع، والانقياد له وحده لا شريك له، فيجب إفراد تعالى بها: كالدعاء، والخوف، والمحبة، والتوكل والإجابة، والتوبة، والذبح، والنذر، والسجود، وجميع أنواع العبادة، فيجب صرف جميع ذلك لله وحده لا شريك له، فمن صرف شيئاً مما لا يصلح إلا لله من العبادات لغير الله فهو مشرك ولو نطق بـ"لا إله إلا الله"؛ إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص. ذكر نصوص العلماء في معنى الإله: قال ابن عباس -رضي الله عنه- { الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين } رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ذكره ابن كثير في التفسير، أول سورة الفاتحة. . وقال الوزير أبو المظفر في "الإفصاح": قوله: شهادة أن لا إله إلا الله، يقتضي أن يكون الشاهد عالماً بأن "لا إله إلا الله"، كما قال الله -عز وجل- { فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } . وينبغي أن يكون الناطق بها شاهداً فيها، فقد قال الله -عز وجل- ما أوضح به أن الشاهد بالحق إذا لم يكن عالماً بما شهد به، فإنه غير بالغ من الصدق به مع من شهد من ذلك بما يعلمه في قوله تعالى: { إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } . قال: واسم الله تعالى مرتفع بعد (إلا) من حيث إنه الواجب له الإلهية، فلا يستحقها غيره -سبحانه- قال: واقتضى الإقرار بها أن تعلم أن كل ما فيه أمارة للحدث، فإنه لا يكون إلهًا، فإذا قلت: "لا إله إلا الله" فقد اشتملت نطقك هذا على أن ما سوى الله ليس بإله، فيلزمك إفراده -سبحانه- بذلك وحده. وحمله الفاعلة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة هي مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبتت الإيجاب لله -سبحانه- كنت ممن كفر بالطاغوت وأمن بالله. وقال أبو عبد الله القرطبي في التفسير: لا إله إلا هو، أي: لا معبود إلا هو. وقال الزمخشري: "الإله" من أسماء الأجناس، كالرجل والفرس، اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق. وقال شيخ الإسلام: "الإله" هو المعبود المطاع. وقال أيضاً في "لا إله إلا الله": إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته؛ ففيها إثبات إحسانه إلى العباد، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما تصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع. وقال ابن القيم -رحمه الله- "الإله" هو الذي تأله القلوب محبة وإجلالاً، وإبادة وإكراماً وتعطيماً ودلاً وخضوعاً، وخوفاً ورجاءً وتوكلاً. وقال ابن رجب -رحمه الله- "الإله" هو الذي يطاع فلا يعصى، هيبه له وإجلالاً ومحبة وخوفاً ورجاءً وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول: "لا إله إلا الله" ونقصاً في تويده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك. وقال البهائي: "لا إله إلا الله"، أي: انتفى استغناء عظميا أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان الإذعان والعمل بها تقتضيه، وإلا فهو جهل صرف. وقال الطيبي: "الإله" فعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من آله إلهة، أي: عبد عبادة. وهذا كثيراً جداً في كلام العلماء، وهو إجماع منهم أن الإله هو المعبود، خلافاً لما يعتقد عبادة القبور وأشباههم في معنى الإله أنه الخالق، أو القادر على الاختراع، أو نحو هذه العبارات، ويظنون أنهم إذا قالوا بهذا المعنى فقد أتوا من التوحيد بالغاية القصوى، ولو فعلوا ما فعلوا من عبادة غير الله: كدعاء الأموات، والاستغاثة بهم في الكربات، وسؤالهم قضاء الحاجات، والنذر لهم في الملمات، وسؤالهم الشفاعة عند رب الأرض والسموات، إلى غير ذلك من أنواع العبادات، وما شعروا أن إخوانهم من كفار العرب يشاركونهم في هذا الإقرار، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على الاختراع، ويعبدونه بأنواع من العبادات، فليهن أبا جهل وأبا لهب ومن تبعهما الإسلام بحكم عباد القبور، وليهن أيضاً إخوانهم عباد بد وسواع وبعوث ويعوق ونسر إذ جعل هؤلاء دينهم، والإسلام المبرور، ولو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجهال، لم يكن بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته ويلبون دعوته، إذ يقول لهم قولوا: "لا إله إلا الله". بمعنى أنه لا قادر على الاختراع إلا الله. فكانوا يقولون: سمعنا وأطعنا. قال الله تعالى: { وَلئن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } { وَلئن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } { فُلْ مَنْ يَرْفُقُكَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ بِئَلِكِ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ } الآية. إلى غير ذلك من الآيات، لكن القوم أهل اللسان العربي، فعملوا أنها تهدم عليهم دعاء الأموات والأصنام من الأساس، وتكذب بناء سؤال الشفاعة من غير الله وصرف الإلهية لغيره، لأم الراس، فقالوا: { مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُغْنُوا عَنْهُمُ الْغِنَىٰ وَاللَّهُ يَغْنِي عَنْهُمْ وَاللَّهُ غَنِيٌّ غَنِيًّا } { مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُغْنُوا عَنْهُمُ الْغِنَىٰ وَاللَّهُ يَغْنِي عَنْهُمْ وَاللَّهُ غَنِيٌّ غَنِيًّا } . فبتنا لمن كان أبو جهل ورأس الكفر من قريش وغيرهم أعلم منه بلا إله إلا الله. قال تعالى { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ آئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ } . فعرفوا أنها تقتضي ترك عبادة ما سوى الله، وإفراد الله بالعبادة، وهكذا يقول عبادة القبور إذا طلبت منهم إخلاص الدعوة والعبادة لله وحده: أترك ساداتنا وشفاعاتنا في قضاء حاجتنا؟ فيقال لهم: نعم وهذا الترك والإخلاص هو الحق، كما قال تعالى: { بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ } . فلا إله إلا الله اشتملت على نفي وإثبات: فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم فليس بإله، ولا له من العبادة شيء. وأثبتت الإلهية له وحده، بمعنى أن العبد لا ياله غيره، أي لا يقصده بشيء من التاله، وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة: كالدعاء، والذبح، والنذر، وغير ذلك. وبالجملة: فلا ياله إلا الله، أي: لا يعبد إلا هو. فمن قال هذه الكلمة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها: من نفي الشرك، وإثبات الوجدانية لله، مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به، فهذا هو المسلم حقاً، فإن عمل به ظاهراً من غير اعتقاد فهو المنافق، وإن عمل بخلافها من الشرك فهو الكافر ولو قالها، ألا ترى أن المنافقين يعملون بها ظاهراً وهم في الدرك الأسفل من النار، واليهود يقولونها وهم على ما هم عليه من الشرك والكفر، فلم تتفهم، وكذلك من ارتد عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها فإنها لا تنفعه، ولو قالها مائة ألف، فكذلك من يقولها ممن يصرف أنواع العبادة لغير الله، كعبادة القبور والأصنام، فلا تتفهم ولا يدخلون في الحديث الذي جاء في فضلها، وما أشبهه من الأحاديث، وقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك بقوله: "وحده لا شريك له". تنبيه على أن الإنسان قد يقولها وهو مشرك: كاليهود، والمنافقين، وعباد القبور. لما رواه ابن النبي - صلى الله عليه وسلم - دعا قومه إلى قول "لا إله إلا الله"، طنبوا أنه إنما دعاهم إلى النطق بها فقط، وهذا جهل عظيم، وهو -عليه السلام- إنما دعاهم ليقولوها ويعملوا بمعناها، وبتروكوا عبادة غير الله، ولهذا قالوا: { آئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ } وقالوا: { أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَّا وَاحِدًا } . فهذا أبوا عن النطق بها، وإلا فلو قالوها وبقوا على عبادة اللات والعزى ومناة، لم يكونوا مسلمين، ولقاتلهم -عليه السلام- حتى يخلعوا الأنداد وبتروكوا عبادتها، ويعبدوا الله وحده لا شريك له، وهذا أمر معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة والإجماع، وأما عباد القبور فلم يعرفوا معنى هذه الكلمة، ولا عرفوا الإلهية المنفية عن غير الله، الثابتة له وحده لا شريك له، بل لم يعرفوا من معناها إلا ما أقر به المؤمن والكافر، واجتمع عليه الخلق كلهم من أن معناها: لا قادر على الاختراع، أو أن معناها: الإله، هو الغني عما سواه، الفقير إليه كل ما عداه، ونحو ذلك. فهذا حق وهو من لوازم الإلهية، ولكن ليس هو المراد بمعنى لا إله إلا الله، فإن هذا القدر قد عرفه الكفار، وأقروا به ولم يدعوا في ألهم شيئاً من ذلك، بل يقرون بقرهم، وحاجتهم إلى الله، وإنما كانوا يعبدونهم على معنى أنهم وسائط وشفعاء عند الله في تحصيل المطالب ونجاح المارب، وإلا فقد سلموا الخلق والملك والرزق والإحياء والإحياء والأمر كإله له وحده لا شريك له، وقد عرفوا معنى لا إله إلا الله، وأبوا عن النطق والعمل بها، فلم يفهمهم توحيد البروبية مع الشرك في الإلهية، كما قال تعالى: { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } . وعباد القبور نطقوا بها، وجعلوا معناها، وأبوا عن الإثبات به، فصاروا كاليهود الذين يقولونها ولا يعرفون معناها ولا يعملون به، فتجد أحدهم يقولها وهو ياله غير الله بالحب والإجلال والتعظيم، والخوف والرجاء، والتوكل والدعاء عند الكرب، ويقصده بأنواع العبادة الصادرة عن تاله قلبه لغير الله، مما هو أعظم مما يفعله المشركون الأولون. ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله تعالى، أعطاك ما شئت من الأيمان صادقاً أو كاذباً، ولو قيل له: احلف بحياة الشيخ فلان، أو بترته ونحو ذلك، لم يحلف إن كان كاذباً، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أعظم في قلبه من رب الأرباب، وما كان الأولون هكذا، بل كانوا إذا أرادوا التشديد في اليمين حلفوا بالله تعالى، كما في قصة القسامة التي وقعت في الجاهلية، وهي في صحيح البخاري رواه البخاري كما في الفتح: 7/190 برقم: (3845) في مناقب الأنصار، باب "القسامة في الجاهلية". عن ابن عباس، وهي قصة أول قسامة في الجاهلية في بني هاشم، لما قتل رجل منهم في عقال بعير فأنكر القاتل، فحلف من قومه ثمانية وأربعون رجلاً، فما حال الحول ومنهم غير تطرف. وكثير منهم أو أكثرهم يرى أن الاستغناء بإلهه يعيده عند قبره أو غيره أنفع وأنجح من الاستغناء بالله في المسجد، ويصرون بذلك، والحكايات عنهم بذلك فيها طول، وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين. وهؤلاء إلا أصابتهم الشكائد أخصوا للمدفعين في التراب. وهنقوا بأسمائهم ودعوتهم ليكتشفوا ضر المصاب، في البر والبحر والسفر والإياب، وهذا أمر ما فعله الأولون، بل هم في هذه الحال يخلصون للكبير المتعال، فأقرا قوله تعالى: { قَائِدًا رَكِبُوا فِي الْفَلْكِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } . وقوله: { ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِنَّهٗ يُخَارِجُكُمْ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا قَرِيبٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } . وكثير منهم قد عطلوا المساجد، وعمروا القبور والمشاهد، فإذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه، أخذ في دعاء صاحبه باكياً خاشعاً ذليلاً خاضعاً، بحيث لا يحصل له ذلك في الجمعة والجماعات، وقيام الليل وأدبار الصلوات، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفرج الكرب، والنجاة من النار، وأن يحطوا عنهم الأوزار، فكيف بطن عاقل فضلاً عن عالم أن التلطف بلا إله إلا الله مع هذه الأمور تفهم؟! وهم قالوها بألسنتهم وخالفوها باعتقادهم وأعمالهم، ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين، ونطق أيضاً بشهادة أن محمداً رسول الله، ولم يعرف معنى الإله ومعنى الرسول، وصلى وصام وحج ولا يدرى ما ذلك، إلا أنه رأى الناس يفعلون فتابعهم، ولم يفعل شيئاً من الشرك، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه، وقد أفتى بذلك فقهاء المغرب كلهم في أول القرن الحادي عشر أو قبله في شخص كان كذلك، كما ذكره صاحب (الدر الثمين في شرح المرشد المعين) من المسألة، ثم قال شارحه: وهذا الذي أفتوا به جلي في غاية الجلاء، لا يمكن أن يختلف فيه اثنان. انتهى. ولا ريب أن عبادة القبور أشد من هذا: لأنهم اعتقدوا الإلهية في أرباب متفرقين. فإن قيل: قد تبين معنى الإله والإلهية، فما الجواب عن قول من قال بأن الإله القادر على الاختراع، ونحو هذه العبارة؟ قيل: الجواب من وجهين: أحدهما: أن هذا قول مبتدع، لا يعرف أحد قاله من العلماء ولا من أئمة اللغة، وكلام العلماء وأئمة اللغة هو معنى ما ذكرنا كما تقدم، فيكون هذا القول باطلاً. الثاني: على تقدير تسليمه فهو تفسير باللام للإله الحق، فإن اللازم له أن يكون خالقاً قادراً على الاختراع، ومنى لم يكن كذلك، فليس ياله حق وإن سمي إلهًا، وليس مراده أن من عرف أن الإله هو القادر على الاختراع فقد دخل في الإسلام، وأنى بتحقيق المرام، من مفتاح دار السلام، فإن هذا لا يقوله أحد: لانه يستلزم أن يكون كفار العرب مسلمين، ولو قدر أن بعض المتأخرين أرادوا ذلك فهم مخطئون، برد عليهم بالدلائل السمعية والعقلية. انتهى.